

ومن المؤكد أن الشعر أحياناً يكمل التاريخ، فقد ينسى المؤرخون معركة كبرى ويذكرها بعض الشعراء كمعركة الأسطول العربي مع الأسطول البيزنطي في عهد الخليفة المتوكل، فإن الأسطول الأخير دُمِّرَ كان لم يكن شيئاً مذكوراً. وسكنت عن ذكر ذلك كتب التاريخ العربية، ولولا أن البحترى صور المعركة وبطولة العرب فيها ما عرفنا عنها شيئاً. وكلنا نعرف أنه لو لم يقبض المتنبي لتصوير بطولة سيف الدولة أمير قلعة حلب الذي ظل ينازل جيوش الدولة البيزنطية نحو عشرين عاماً وينزل بها هزائم متعاقبة ما تجسدت هذه البطولة في نفوس الشباب العربي من جيل إلى جيل بالصورة الرائعة التي رسمها المتنبي للبطل العربي، وإذن لكانت سرداً تاريخياً لا يحوى شيئاً من هذا اللهب الحماسي الشعري الذي أودعه المتنبي سَيِّفِيَّاتِهِ. ومن يقرأ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: دولة نور الدين ودولة صلاح الدين، لأبي شامة المقدسي يلاحظ - كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع - أنه قسم وصفه لمعاركها الحربية ضدَّ الصليبيين قسمين: قسماً لنفسه يسرد فيه أحداث المعركة، وقسماً للشعراء يصفون فيه المعركة وأحداثها وصفاً شعرياً، يصور بسالة قائدها وجنوده تصويراً يُشعل الشجاعة والمضاء والعزيمة المصممة في نفوس العرب كي يسحقوا الصليبيين سحقاً لا يُبقى ولا يذر.

وعلى هذا النحو كان الشعر العربي دائماً سجلاً تاريخياً قيماً لأحداث القرون الماضية؛ وليس هذا كل ما أريد أن أقوله، بل أريد أن أقول أيضاً إنه حين نفتقد التاريخ الدقيق لدولة من دولنا في العصور الغابرة ينبغي أن نلجأ إلى دواوين الشعراء الذين عاصروها، لعلنا نجد فيها ما افتقدناه أو بعض ما افتقدناه. ولعل من الطريف أن نعرف أن دولة العيونيين التي حكمت إقليم الأحساء والقُطيف وهجر والبحرين نحو مائة وسبعين عاماً لم تسجل تسجيلاً واضحاً أحداثها وشتونها التاريخية لا عند ابن الأثير ولا عند غيره من المؤرخين القدماء، ولولا أن شاعراً سجل كثيراً من هذه الشئون والأحداث في أشعاره لضاع منا تاريخ هذه الدولة إلا قليلاً. وهو شاعر من الأسرة الحاكمة أسرة العيونيين خلف ديواناً كبيراً من الشعر، هو علي بن المقرَّب العيوني الذي عاش